مروة عارف

سيبقى الفعل غاليًا!

دق جرس حصة اللغة العربية وتلتها حصة العلوم، دخل مدرس المادة إلى الفصل، وهو الأستاذ عماد، رجل بسيط بمرحلة الشباب، بشوش الوجه، مخلص لعمله لدرجة أن جميع التلاميذ كانوا عباقرة بمادته! وأنا أتذكر أنه لم يكن قاهريًا، كان مغتربًا عن بلده وذويه. .

بدأ الأستاذ عماد في الشرح والأسئلة، وتهافتت الأيدي لقول الإجابات الصحيحة، وأثناء اندماج كامل الفصل وتركيزه التام، لاحظ المدرس تلميذًا مستلقيًا برأسه على الدكة لا يحدث حراكًا، يبدو للناظر من بعيد كأنه غير مبالٍ بما يحدث، غير مهتم بالحصة، ولا يقدر وجود المعلم. .

سكت الفصل، ونزلت الأيدي دفعة واحدة، وحدق الجميع بتمعن وتركيز ليرى ما الذي سيفعله الأستاذ بالطفل. .

عيون الأطفال بريئة إلى حد كبير، لا تعرف حتى أن تخفي مشاعرها، أو ما تريد قوله. . إنها دائمًا صريحة، نقية، وتلقائية.

حدقت عيونهم بخطوات المعلم الثائر، وكانت تنظر بخوف وترقب. . فقد توقعنا جميعًا أن الطفل سيلقى عقابًا شديدًا لا محالة. .

اتجه المدرس نحو الطفل المستلقي في ثورة غضب عارمة ثم هزه بعنف وكاد يهم بتأنيبه، ولكن فجأة ارتسمت تعابير مغايرة على وجه المعلم ذو الملامح المصرية الأصيلة، حينما رأى وجه الطفل الذي بالكاد استطاع أن يرفع رأسه، تغيرت الملامح بعفوية من تعابير الغضب والشر، إلى تعابير أسف محملة بندم بالغ، تتبعهما تنهيدة جزع، الذي لطالما أفقدنا صوابنا. .

وفي مشهد حُفر حفرًا بالذاكرة ولم يبرحها ولو ليلة، رفع المدرس يده قائلًا للتلميذ المستلقي بكل بساطة. . أنا آسف!

ثم أفلته برفق، وعاد ليكمل الشرح. .
ما الذي حدث؟! نظر الأطفال لبعضهم بتعجب، وتساءلت عيونهم بعضها البعض هل اعتذر منه حقًا!
لم يكن التلميذ متجاهلًا للمدرس والحصة عن قصد، بل كان المسكين مستلقيًا لأن المدرس الذي سبق مدرس العلوم قد عاقبه على خطأ ارتكبه بالضرب الوحشي، حتى إن المسكين لم يقدرعلى التحرك. . ! لكن يبدو أن أستاذ عماد أساء الفهم وقد ظن أنه مريض أو ما شابه، ولأني أعتقد أن شخصًا بأخلاق هذا المدرس ما كان ليترك تلميذًا أبدًا تم الإعتداء عليه بتلك القسوة وهو في هذه الحالة السيئة. .
خمسة عشر عامًا مرت على تلك الحادثة وأنا أتذكرها كأنها بالأمس، وكلما تذكرتها أبتسم كأول مرة، لم تغب عن خاطري ولو لحظة، لقد ترسخت بذهني إلى الأبد. .
المدرس المُعتدي كان دائم التحدث عن الفضيلة وعن دروسها، لكنه عاقب طفل صغير عن خطأ ارتكبه بعنف بالغ، جعلت التلاميذ لا يثقون بأي ردة فعل طيبة من أي مدرس، فلا ترى أعينهم إلا العقاب، حتى إنهم ظنوا وظننت الظنون بالأستاذ عماد وأنه قطعًا سيفتك بالتلميذ المستلقي، ولكن الجميع تفاجأ بردة فعله، لقد هدم كافة ظنوننا السلبية في لحظة. .
مر على الموقف أكثر من عقد ونصف ومازلت أتذكر ذلك المدرس البسيط طيب القلب الذي يعمل في مدرسة حكومية بحي شعبي، ويتقاضى أجرًا متواضعًا يعتذر من طفل في عمر العاشرة ليس من أبناء أصحاب القصور والسيارات الفارهة وما شابه، مجرد طفل عادي من طبقة محدودي الدخل كسائر زملائه في الفصل. .

في تلك اللحظة أحدث المعلم شيئًا عظيمًا بداخلي، جعلتني أحتفظ بالحكاية طيلة هذه السنوات وأقوم بتدوينها بنفسي، حتى يعلم الناس أن الإنسان الفاضل لا تغيره الظروف القاسية، وأن الأخلاق لا يمكن أن تنهار أبدًا. .

إن الأمر أشبه بجذر شجرة عظيمة، تقبض فروعها على تراب الأرض قبضًا، لذلك فإن الشجرة لن تزعزعها الريح ولن تخيفها أصوات الرعد، وإذا مررت بجوارها تجدها قوية، واقفة بشموخ، لا تهتز ولا تميل. . هكذا رأيت الأستاذ عماد. .

فقد علمني أن الاعتذار ليس قصرا على الصغار وحدهم، وأن الكبار يخطئون أيضًا وحينها يتوجب عليهم الاعتذار بشجاعة ودون تردد، علمني أن الكلام بخس الثمن ويمكن للجميع أن يتحدث عن الفضيلة والأخلاق، لكن سيبقى الفعل غاليًا إلا على الأقوياء!

وضرب هذا المدرس على ذلك مثالًا عظيمًا ولم ينكر اعتذاره لطفل صغير، لقد أعطاني درسًا غاليًا أقيم بكثير من دروس الكتب. .

بطريقة غير مباشرة تعلمت تلك الطفلة مما فعله المعلم أن الاعتذار لا يقلل أبدًا من شأن صاحبه، بل يرفعه درجات ودرجات، ودون شك يجعله غنيًا بحُسن أخلاقه أمام نفسه وأمام الجميع. .

شكرًا أ/عماد لقد كنت ولازلت مثالًا للمدرس القدوة <٣!

****